الأنســـاق المضـــــمرة للســـــخرية ودلالاتـــها في مقامات بديع الزمان الهمذاني

The hidden patterns of ridicule and their significations in "Badie-Zaman Hamadani" Maquamat

د.راضية لرقم

جامعة:الإخوة منتوري – قسنطينة

(كلية الآداب واللغات – قسم الآداب واللغة العربية)

larkemradia@gmail.co

تاريخ الإرسال: 10/18 / 2018	تاريخ القبول: 2019/05/16	تاريخ النشر: 2019/07/15

ملخص البحث

تعد السخرية أسلوبا يتضمن معنى الاستهزاء، والذي يحمل دلالات المفارقة بين المقصود من الكلام والمصرّح به، ويعبّر من خلالها الأديب أو الشاعر عن رفضه لبعض الظواهر الاجتماعية أو السياسية، دون الإفصاح عن ذلك، في قالب فكاهي- ساخر، يمتزج بأسلوب التهكم الذي يُظْهِرُ معنًى، غير المعنى المضمر، وهو المقصود حقيقة، فينقدها قصد تغييرها، من خلال تعميق النظر فيها ومحاولة معالجتها.

وتعتبر نصوص مقامات بديع الزمان الهمذاني خطابا يتضمن أسلوب السخرية وفق صور عديدة، والذي يحمل بين طياته نقدا للمجتمع، بما فيه من نقائص وعيوب؛ حيث يعرض الهمذاني من خلالها بعضا من مظاهر الحياة السائدة آنذاك، والتي كان يندد بها ضمنيا، منها الاحتيال والكدية والتسول ... وغيرها من الطرق التي كانت وسائل للتكسب.

ويروم هذا المقال تسليط الضوء على مفهوم السخرية بعمق، باعتبارها تتداخل مع أسلوبي الهزل والفكاهة، ثم سبر أغوار أهم صور السخرية في مقامات الهمذاني، والأنساق المضمرة فيها، والكشف عن دلالاتها.

الكلمات المفتاحية : نسق ؛ مضمر ؛سخرية؛ مقامات ؛بديع الزمان الهمذاني.

Abstract

The ridicule is a method that includes the meaning of mockery, which carries the connotations of the paradox between the meaning of speech and the author, and through which the writer or poet expressed his rejection of some social or political phenomena, without disclosing it, in a comic-sarcastic form, It is not the hidden meaning, which is the meaning of truth, and it

criticizes it in order to change it, by deepening its consideration and trying to deal with it.

The texts of the (Maquamat) of Badie-Zaman Al-Hamadani are a speech that includes a method of ridicule according to many images, which carries with it a critique of the society, with its shortcomings . Hamdani presents some of the aspects of the prevailing life in that time , which he implicitly rejects it , including fraud, cunning and begging. .. And other ways that were means to earn. This article aims to shed light on the concept of irony in depth, as it overlaps with the methods of humor and then explore the most important images of irony in (Maquamat) of Hamadani, and the hidden patterns in them, and detect their significances .

Keywords: Pattern ; Hidden ; Ridicule; Maquamat ; Badie-Zaman Al-Hamadani

تمهيد:

تعد المقامات عبارة عن «حكاية قصيرة مثيرة مسجوعة، قد تتضمن أبياتًا من الشعر وقد لا تتضمن، تدور حول مغامرة بطلٍ واحد ظريف، ذلِقِ اللسان، عالمٍ باللغة، خبيرٍ بدقائقها، يكتسب عيشه بالحيلة والكُدْية، وسيلته إلى ذلك قدرته اللغوية والأدبية، وهي تزخر بالحركة والحوار والسِّجال، وقد تشتمل على مُلْحة أو طُرْفة، ويرويها راوية واحد»[1]، فالمقامة هي حكاية قصيرة يسرد راوية تفاصيل قصة بطلها المغامر؛ حيث يحتال على الناس ليكسب قوت يومه، ويتوسل بفصاحته إلى تحقيق مبتغاه.

أما الهمذاني فهو أحمد بن الحسين يحي بن السعيد الهمذاني، أبو الفضل (358هـ – 398هـ)، المعروف بلقب "بديع الزمان الهمذاني" ولد بهمذان ، لكنه انتقل إلى هراة بخرسان سنة 380هـ، ثم إلى نيسابور سنة 382هـ، ألّف مقامات ورسائل، كما أن له ديوان شعر، ولم ينل الهمذاني الشهرة إلا بعد المساجلة التي دارت بينه وبين أبي بكر الخوارزمي، وذاع صيته أكثر بعد موت الخوارزمي[2]، وقد كان الهمذاني« قوي الحافظة يُضرب المثل بحفظه. ويذكر أن أكثر "مقاماته" ارتجال، وأنه كان ربما يكتب الكتاب مبتدئا بآخر سطوره ثم هلم جرا إلى السطر الأول فيخرجه ولا عيب فيه!» [3]

وقد تناولت مقامات بديع الزمان الهمذاني مختلف المواضيع الخاصة بجوانب الحياة المتعددة، وبعضها مرتبط بظاهرة الكُدْية التي برزت في العصر العباسي، والتي تتضمن دلالات التسول،

الاحتيال، الاستجداء وكسب المال باستعمال المراوغة والتحايل[4]؛ فبطل مقامات الهمذاني مكديٌّ، يستجدي الناس بحيله وفصاحة لسانه وطرافته وأدبه.

وتتعدد الآراء حول عدد مقامات الهمذاني، ويعرض مصطفى الشكعة هذه الآراء ، ويصل في نهاية المطاف إلى تأييد رأي الثعالبي، والمتمثل في أن« عددها أربعمائة واندثر منها أغلبها ولم يصلنا إلا القدر الصغير والبالغ الاثنين والخمسين مقامة »[5]

أولا: ضبط مفاهيم مصطلحات : السخرية، التهكم والفكاهة

اتخذت العديد من النصوص الأدبية طابع السخرية أسلوبا مميزا لها، من بينها مقامات الهمذاني التي تعج نصوصها بمقاطع سردية مثيرة للسخرية والتهكم والفكاهة، من خلال وقائع وأحداث مروية تعرض لمواقف تتعلق بواقع المجتمع من عدة جوانب.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى سبر أغوار أهم صور السخرية في مقامات الهمذاني، والأنساق المضمرة فيها، والكشف عن دلالاتها، لكن في البداية يجب توضيح مفاهيم بعض المصطلحات التي تتداخل دلالاتها فيما بينها، بغية الكشف عن الفارق الدلالي بينها، والمتمثلة في: السخرية، التهكم والفكاهة.

1- **مفهوم السخرية:**

أ- **لغة :**

ترد كلمة سَخِرَ في معجم لسان العرب لابن منظور بمعنى الذل والخضوع والاستهزاء، حيث يقول ابن منظور: « سَخِرَ منه وبه سَخْرًا وسَخَرًا ومسْخَرًا وسُخْرًا بالضَّم، وسُخْرَةً وسِخْرِيَةً: هزئ به ... وفي الحديث : أَتَسْخَرُ منّي ... أي أتستَهْزِئُ بي، السِخْرَةُ الضُّحْكَةُ، ورجلٌ سُخَرَةٌ: يسخَرُ من النّاس ... ويقال : سخَّرْتَهُ أي قهرْته وذَلَّلْتَهُ »[6] ، ونجد كلمة سَخِرَ في القاموس المحيط بمعنى الاستهزاء[7]، وفي معجم مقاييس اللغة تدل لفظة سَخِرَ على الاحتقار والاستذلال[8].

و وفق ما سبق، نجد أن جل المعاجم التي تطرقنا من خلالها إلى مفهوم السخرية قد أجمعت أن لفظة السخرية تتضمن دلالات: الخضوع، التذليل والاحتقار.

ب – اصطلاحا:

تعد السخرية أسلوبا صَاحَبَ حياة الإنسان منذ القدم، ولطالما رصد مظاهر الحياة، فهي بمثابة « طريقة في التهكم المرير والتنّدر أو الهجاء الذي يطغى فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان

وربّما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا» [9]، ويعرّفها نعمان محمد أمين طه بأنها "طريقة من طرق التعبير، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم، وهي صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء التي إنْ فطن إليها وعرفها فنّان موهوب تمام المعرفة، وأحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحا مميتا»[10]

وتمثل السخرية أسلوبا أدبيا يجنح إلى استهجان ظاهرة ما، أو سلوك معين، بطريقة تقترب من التهكم، وهي تعبير عن رؤى الأديب الساخر اتجاه تناقضات الواقع وقضاياه؛ وبذلك فإن السخرية تلتقي في مفهومها بدلالات الفكاهة، التهكم والاستهزاء؛ فالسخرية ترتبط بالفكاهة لأنها تتضمن خطابها الساخر، وتعد من بين الأساليب التي تستدعي الضحك، لجمعها بين الجد والهزل، قصد تعبير الكاتب الساخر عن نقده لبعض الظواهر، والكشف عنها بشكل واضح في قالب هزلي، الغرض منه تعرية الواقع، والكشف عن سلبياته ومتناقضاته.

بالإضافة إلى أن السخرية « من أكثر أشكال الفكاهة أهمية، وهدفها عموما، مهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير، وبالطبع فإن هذا الوضع الراهن لابد من أن يكون محصلة لممارسات عدة خاطئة سابقة، مما ينذر بأخطار ينبغي التحذير منها، ويكون الأدب الساخر عموما إحدى علامات هذا التحذير»[11]

2- التهكم

أ- لغة:

يعرّف ابن منظور التهكم في لسان العرب بقوله: « الهَكِمُ : المتَقَحَّمُ على ما لا يعنيه الذي يتعرَّض للناس بشرِّه... وقَدْ تَهَكَّمَ على الأمْرِ وتَهَكَّمَ بنا: زرى علينا وعَبِثَ بنا. وتَهَكَّم له وهَكَّمه: غنَّاهُ... والتَهَكُّمُ : الاسْتهزَاء»[12]،ويرد مفهوم التهكم في القاموس المحيط بمعنى الاستهزاء، الغضب والتندم[13]

ب - اصطلاحا:

التهكم هو « شكل من أشكال الكلام أو (الخطاب) يكون المعنى المقصود منه عكس المعنى المعبر عنه بالكلمات المستخدمة، وغالبا ما يأخذ هذا المعنى أشكال الهجاء أو الاستهزاء الذي تستخدم فيه تعبيرات هازئة ملتبسة كي تتضمن إدانة أو تحقيرا أو تقليلا ضمنيا مستترا من شأن

شخص أو موضوع أو كليهما معا»[14]، والسخرية تلتقي معه، في كونهما يدلان على الاستهزاء، والتذليل.

3-**الفكاهة:**

أ- **لغة:**

ورد في لسان العرب مفهوم لفظة فَكِه في قوله: « رجل فَكِهٌ: يَأْكُلُ الفَاكِهَةِ... والفَكِهُ :الذي يَنَالَ مِنْ أعْرَاضِ النَّاس... والفَاكِهَةِ أيضا: الحَلوَاء على التَّشْبِيهِ. وفَكَّهَهُم بمُلَحِ الكَلاَمِ: أَطْرَفَهُمْ... الفَكَاهَةُ، بالفَتْحِ، مَصْدَرُ فَكِهَ الرّجلُ، بالكَسْرِ، فَهُوَ فَكِهٌ إذا كَانَ طَيِّبَ النَّفْسِ مَزَّاحًا، والفَاكِهُ: المزّاحُ» [15] ، ويعرّف الفيروز آبادي الفكاهة على نحو يقترب من مفهومها الوارد في لسان العرب؛ فحددها وفق دلالات : المزاح، والطرافة والضحك[16]

وحسب التعريفين السابقين للفظة (فَكِهَ)، فإن دلالة الفكاهة تتمحور حول دلالات : الطيبة، الطرافة، المزاح والتلطف في الحديث.

ب - **اصطلاحا:**

تومئ الفكاهة « إلى ذلك الاتجاه الباسم أو البسام أو الضاحك الساخر اتجاه الحياة واتجاه نقائصها، واتجاه مظاهر عدم اكتمالها، أي ذلك الاتجاه الذي يتضمن فهما خاصا لمظاهر التناقض في الوجود أو الحياة أو يتضمن شعورا خاصا بالتفوق مصحوبا بالبهجة، أو غير ذلك من الدوافع والمبررات» [17]، وحين يكون « الغرض من الفكاهة ليس هو الإضحاك والضحك فحسب، وإنما هو- في كثير من الحالات- التقويم والتهذيب والإصلاح، بنقد أنواع من النقص أو القبح أو الخروج على المألوف، فإنه يشترط في هذا النقد ألا يجرح كما يجرح الهجاء»[18].

ويمكن القول إن العلاقة بين السخرية والتهكم والفكاهة هي علاقة ترابط وتداخل؛ حيث إن السخرية ضمنيا تنطوي على دلالات التهكم والفكاهة؛ باعتبار أن السخرية هي« نوع من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية، الفردية منها والجمعية، كما لو كانت عملية الرصد، أو المراقبة لها، تجري هنا من خلال وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها، أو التقليل من قدرها، أو جعلها مثيرة للضحك، أو غير ذلك من الأساليب التي يكون الهدف من ورائها محاولة التخلص من بعض الخصال والخصائص السلبية» [19].

ثانيًا – صور السخرية في مقامات بديع الزمان الهمذاني:

اتخذت صور السخرية في مختلف مقامات الهمذاني شكلين مختلفين؛ حيث كان الهمذاني يهدف من خلالهما إلى نقد المجتمع بغية إصلاحه، والمحافظة على مقوماته، انطلاقا من تقويم بعض المظاهر والسلوكيات ، ويمكن إجمال الحديث عن هذين الشكلين من السخرية فيما يلي:

1 – الفكاهة:

تعد الفكاهة من بين أساليب السخرية التي وظفها بديع الزمان الهمذاني، والتي تخفي نقدا لسلوك معين، من خلال تصوير شخصية تقوم بأدوار معينة في قصص بعض المقامات، والتي يقصد الهمذاني من خلالها تقييم ذلك السلوك، والدعوة غير المباشرة لتحلي أفراد المجتمع بالسلوك المناقض له، من ذلك مثلا، ما رواه "عيسى بن هشام" في " المقامة البغدادية "عن احتياله على رجل يدعى" أبا عبيد"؛ حيث دعاه إلى الغذاء، وطلب له ما لذ وطاب من الشواء، على أساس أنه يضيّفه، وتقاسم معه ذلك الغذاء، ثم احتال عليه وغادره بحجة أنه سيجلب له الماء ليرتوي، وتركه يواجه الشوّاء بمفرده[20]

لقد انتقد الهمذاني سلوك الكُدية والاحتيال بأسلوب ساخر يمتزج بالفكاهة، من خلال سخريته من سذاجة الرجل "أبو عبيد"، الذي استطاع "عيسى بن هشام" أن يحتال عليه بسهولة، فوضعه في موقف حرج، وفي الآن ذاته، يقدم نقدا ساخرا للكُدية، في قالب فكاهي، يختلط الجد فيه بالهزل؛ فقد « برزت ظاهرة الكُدية في عصر بديع الزمان الهمذاني بروزا قويا؛ فقد تردّت الحياة الاجتماعية ترديا بشعا شنيعا، من شأنه أن يؤذي الضمائر الأبية، والقلوب الذكية، ويزري بمروءة الرجل الكريم، ويغضّ من قدره » [21]

كما أن الشخص الذي يستهزئ الهمذاني منه، سواء كان عيسى بن هشام أو الإسكندري أو غيرهما، ليس هو الهدف بل الفعل أو السلوك الذي قام به، كالكُدية والاحتيال والخداع على سبيل المثال؛ وبالتالي فإن تصوير ذلك السلوك، في قالب فكاهي تهكمي ساخر، يتضمن إشارة الى دعوة أفراده الى التحلي بالصفات المناقضة؛ ولعل ذلك سبب ارتباط الدعابة والفكاهة بأسلوب السخرية عند الهمذاني وغيره.

وتسعى الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني إلى الإحاطة بنقائص الفرد المسخور منه، وعيوبه، والمبالغة في تصويرها، قصد جعل هذا الشخص مهانا وذليلا، وهي طريقة يلتمسها

الهمذاني لمعالجة بعض الأفعال أو السلوكيات غير المستحبة؛ كسخريته مما يقوم به أبو الفتح الاسكندري في أغلب مقاماته، حين يجعل الكُدْية حرفة له، تضمن له قوت يومه.

وقد مزج الهمذاني بين السخرية والفكاهة قصد التلميح عمّا يعيشه أفراد الطبقة الفقيرة من المجتمع، من هموم ومشاكل ومعاناة؛ « فبديع الزمان قد اختار نموذجه من الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع، وصوّر من خلاله ومن خلال حيله التي يكتسب بها الرّزق جوانب الحياة التي كانت تسود في عصره، سواء منها ما خبره بنفسه، أو كان يدور من حوله. وجاء ذلك في صورة فنية تبعث على التمرد والسخرية من الأوضاع التي كانت قائمة»[22]، فالمزج بين السخرية والفكاهة يعد من أنجع الطرق لنقد المجتمع وإبراز مساوئه، دون التصريح بالمعنى المقصود مباشرة.

كما ساهمت الفكاهة في الكشف عن بعض العادات والخصال الذميمة التي سادت المجتمع العباسي، وكثير من نوازع أفراده وأعماقهم النفسية، من ذلك مثلا ما يرويه الهمذاني في "المقامة الموصلية" من حيل الاسكندري وسخريته من الناس نتيجة تصديقهم لأكاذيبه الساذجة؛حين ادّعى قدرته على إحياء الموتى، مقابل الظفر بالذهب والفضة، وكانت خدعته ستنطوي على أهل الميت، لولا أن اكتشفوا أمره، وانهالوا عليه بالضرب، واستطاع في النهاية الفرار منهم[23]

نجد أن الهمذاني قد روى قصة إحياء الميت في قالب فكاهي، لينتقد سذاجة القوم وسهولة الاحتيال عليهم، ويسخر من اعتقادات المجتمع الدينية، ويتجلى ذلك أكثر من خلال القصة الثانية التي يسرد تفاصيلها عيسى ين هشام في المقامة نفسها (الموصلية)، والتي تروي قصة احتيال الإسكندري على سكان كانوا يقطنون في قرية بها واد كثير الماء، والذي يهدم جوانب القرية، فيخشون سوءا يصيبهم بسبب سيل ذلك الواد؛ إذ وعدهم بمساعدتهم، شرط أن يأتوه بجارية عذراء، ويذبحوا بقرة صفراء، ويصلوا ركعتين لله، وصدّق أهل القرية ما زعمه الإسكندري، وبينما هم يصلون الركعتين فرّ هو وعيسى بن هشام [24] ، فتصير الفكاهة هنا وسيلة من وسائل الإصلاح ذات المنفعة المجدية، التي ترصد سلبيات المجتمع وتنقدها، وتحاول إصلاحه وتقويم سلوك أفراده.

2 – التهكم:

ساءت الأوضاع السياسية والاجتماعية في العصر العباسي الذي عاش فيه الهمذاني، واضطربت أحوال الناس، ولم يستطع أحد من عامة الناس أو النخبة تغيير الوضع؛ حيث إن هذا العصر« مشحون بالفوضى في الحكم تفتت وانقسام،ومنافسة وصراع على المال،مما أدى إلى خلق

طبقة وسطى في المجتمع، لها مطامح وآمال لا تقف عند حد»[25]، فلجأ الهمذاني حينها إلى التخفي خلف خطاب السخرية والتهكم؛ لنقد الأحوال الاجتماعية السائدة آنذاك ، ليعبر عن مواقفه وآرائه نحوها،بطريقة غير مباشرة، بشكل تهكمي ساخر؛ من ذلك مثلا، تصويره لشخصية الإسكندري الذي يمثل شخصية المكدي؛ حين يعمد إلى طلب المساعدة والمال بالغش والخيانة والتضليل؛ في المقامة الأزادية؛ حيث يتجلى الاسكندري متلثما، مخفيا حقيقته، وملحا على الناس في طلب المساعدة والإحسان[26]،بغية استعطافهم ونيل مساعدتهم، وفق هذه الحالة المزرية التي يتمظهر من خلالها، ونجد الهمذاني في هذا الموقف يسخر ويتهكم من سلوك الإسكندري ، ومن ظاهرة الكُدية ، فكشف حيل الاستجداء وأساليبه، بطريقة ساخرة وهزلية، يتخللها الكثير من التهكم ،كما هو بارز في المقامة الأزادية[27] ،والمقامة الجرجانية[28]، وهي أساليب يجنح إليها أفراد المجتمع قصد اقتناص الأموال التي حرموا منها عنوة، نتيجة إحساسهم بالحاجة والظلم من قبل المجتمع والحكام؛ فقد مثلت شخصية الاسكندري « صورة لفئة البائسين، طرداء المجتمع، ممّن رزقوا مقدّرات إنسانية وفنية، لم يُتح لهم مجتمعهم سبيل إفادة الآخرين بها، والنّفع منها؛ لأنه كان مجتمعا تدور قيمه على سلطان المال؛ فاتخذوا مواهبهم أحابيل للرزق، استغلالا لآفات المجتمع نفسه، وكشفًا لمعايبه، وما يتسلّط عليه من علاقات اجتماعية وسياسية ظالمة »[29]؛ فلطالما تجلى الإسكندري وفق شخصية شاب ذكي ومثقف، لكنه فقير، ويملك من المكر والفطنة والدعابة ما يمكّنه من الاحتيال على الناس لتحصيل المال، ثم يسخر من ضحيته نتيجة وقوعها في فخه، وفي آخر المقامة يتخذ الهمذاني أفعال هذا المحتال ذريعة للسخرية من فعل أو سلوك معين قام به، والتهكم منه؛ لينتقده، وهو غالبا ما يكون فعلا لا يمتثل للقيم الاجتماعية أو الخُلقية أو الدينية، وتبرّر غايته الوسيلة الموظفة لتحقيقه؛ مثال ذلك الحيلة التي احتالها الإسكندري على ضحاياه في المقامة الأصفهانية؛ حيث أوهمهم أنه رأى الرسول محمد _صلى الله عليه وسلم_ في المنام، وعلّمه دعاءً، وأوصاه أن يُعلّمه لأمته، فكتبه على أوراق بالمسك والطيب والزعفران، فمن يطلبه منه وهبه إياه، ومن أشفق عليه عوضه ثمن القرطاس والطيب، فانهالت على الاسكندري الدراهم، ظنا من الناس أنه يؤدي أمانة الرسول، ولم يطلب أجرا على ذلك[30]

لقد استطاع الإسكندري أن يخدع من كانوا بالمسجد، لسذاجتهم، فنجحت حيلته في الاستعطاء، وقد عمد الهمذاني إلى ذلك، كي ينتقد ما كان سائدا في المجتمع آنذاك من سذاجة

منحت لأمثال الإسكندري فرصة استغلال ذلك لتحقيق مآربهم، وفي الآن ذاته، يتهكم الهمذاني ممن كان إيمانهم ضعيف، ويمكن لأي كان أن يستغل ذلك الضعف لصالحه.

كما يعبّر الحوار الأخير، الذي يختم الهمذاني من خلاله أغلب مقاماته عن تهكم البطل الإسكندري من ضحيته التي انطوت عليها حيلته، ويسخر منها ضاحكا، بعد أن يحسن التخلص من المواقف المحْرجَة بسهولة وذكاء؛ حيث يعبر ذلك الحوار عن موقف يجمع بين الجد والهزل؛ إذ يُحوّل الإسكندري الموقف المحْرج إلى موقف هزلي مضحك؛ كما نرى ذلك مثلا في المقامة الأصفهانية؛ حين يصرح الإسكندري ردا على استفسار عيسى بن هشام ، أن الناس "حُمُرٌ"،وعليه أن يجاريهم في ذلك، لينال منهم ما يريد، دون أن يهتم لأمرهم[31]

وهو بذلك يصف أحوال المجتمع وأفراده، وأسلوب الاحتيال الذي طغى فيه، فصار ظاهرة اجتماعية بارزة، تمنح المُسْتَجْد فرصة تحصيل المال بسهولة بفضل مكره وخدعه.

كما أن التهكم الذي يمتزج بالسخرية يجعل من الفرد المسخور منه ومن أفعاله في موقف ضعيف، فيمتثل إلى التغيير المراد من قبل الساخر؛ وحينها يجعل الهمذاني التهكم وسيلة « لتهذيب الفرد والمجتمع، والسعي بهما إلى مستوى أكثر تقدما، وأرقى حضارة؛ لأن الأديب حين يتهكم، فإنه يربط ما بين الأشياء والأمور الواقعة، وما يجب أن تكون عليه من مثُل الكمال» [32]، فمثلا في "المقامة الحرزية"،نجد الهمذاني يسخر ويتهكم من فئة البشر التي تؤمن بأن التمائم تدفع الشر عن الإنسان، وتمنع عنه الموت، من خلال احتيال الإسكندري على مجموعة من الأفراد على متن سفينة ،كان بها ثقب، فما إن أدرك الاسكندري خوفهم من الموت غرقا حتى احتال عليهم بفكرة تغنيه؛ فأخبرهم أنه يملك حرزا يقيهم من الغرق، فإذا باعهم إياه بدينار، ونجوا من الموت، أعطوه دينارا آخر، وانطوت الحيلة عليهم، وفاز الاسكندري بمالهم، وسلموا من الغرق[33]، ففي هذه المقامة يسخر الهمذاني ويتهكم من المعتقدات السائدة في المجتمع العباسي آنذاك؛ حيث يعتقد أفراده أن التمائم تمنع الأذى عن الإنسان، وفي ذلك إيحاء بضعف إيمانهم بالله، وعدم توكلهم عليه، واعتقادهم بالخرافات، لذلك استطاع الاسكندري خداعهم بسهولة.

لقد مزج بديع الزمان الهمذاني بين السخرية والفكاهة والتهكم في مقاماته، ليعبر عن سخطه على وضع المجتمع العباسي آنذاك، ورفضه له، دون أن يصرّح برأيه، بل أومأ إلى ذلك من خلال مغامرات بطل مقاماته أبي الفتح الإسكندري، فإذا كان النسق الظاهر للسخرية في

مقامات الهمذاني هو خلق روح الفكاهة والدعابة والتهكم في ثنايا نصوصها، فما هي الأنساق المضمرة خلف ذلك النسق الظاهر؟

ثالثا – الأنساق المضمرة للسخرية في مقامات الهمذاني:

توطئة :

يأتي مفهوم النسق في المعاجم العربية وفق دلالة النظام والتتابع، فقد ورد في المعجم الوسيط : « نَسَقَ الكَلامَ: عَطَفَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْض.والنَسقُ، مُحَرَّكَةً : ما جَاءَ مِنَ الكَلامِ عَلَى نظَامٍ واحِدٍ...والتَنْسِيقُ : التنْظِيمُ. ونَاسَقَ بيْنَهُمَا: تَابَعَ.» [34]

وجاء في لسان العرب : « النَّسَقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ نِظَامٍ وَاحِدٍ عَامٍ فِي الأَشْيَاءِ... يُقَالُ نَاسِقٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَيْ تَابَعَ بَيْنَهُمَا»[35].

أما اصطلاحا، فإن النسق يعد عبارة عن « نظام ينطوي على أفراد مفتعلين تتحدد علاقتهم بعواطفهم وأدوارهم التي تتبع من الرموز المشتركة والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق » [36]

كما أن النسق « يرتكز على معايير وقيّم تشكل مع الفاعلين الآخرين جزءا من بيئة الفاعلين »[37]، فالنسق إذا هو بمثابة نظام يتغلغل داخل المجتمع، فيحاول التأثير في أفراده، قصد توجيههم، ليمتلك القدرة في النهاية على السيطرة عليهم.

ويرى الغذامي أنه « يجري استخدام النسق كثيرا في الخطاب العام والخاص، وتشيع في الكتابات إلى درجة قد تشوّه دلالتها ، وتبدأ بسيطة كأن تعني ما كان على نظام واحد، كما في تعريف المعجم الوسيط، وقد تأتي مرادفة لمعنى البنية Structure، أو معنى النظام Systemحسب مصطلح دي سوسير »[38]

وقد دعا الغذامي إلى « إعلان موت النقد الأدبي، وإحلال النقد الثقافي مكانه، والهدف هو تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتسويقه بغض النظر عن عيوبه النسقية، إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه »[39]

كما يتحدد النسق حسب الغذامي « عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب: أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا ناسخا للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد »[40]

تنفتح دراسة الأنساق في النصوص الأدبية على سياقاتها التاريخية والثقافية والإجتماعية؛ حيث تتضمن تلك النصوص أنساقا مضمرة، لا يتم الكشف عنها وعن دلالاتها إلا عبر تلك السياقات؛ إذ « تكمن خاصية النسق، دائما، بقدرته على الانفلات، والبناء، والبناء/إعادة البناء، والتمايز، والتحويل، والتوليد؛ أي أنه بهذا المفهوم نسق عابر للمرجعيات المتعددة للخطاب »[41]

إن للنسق دلالات مضمرة وخفية في مضامين السخرية في نصوص مقامات الهمذاني، وتتعدد صوره ليتنوع وفق ما يخفيه الخطاب السردي للمقامات، والتي يحددها السياق الثقافي للمجتمع العباسي حسب طبقاته المختلفة وفئاته؛ فالنسق « ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة، ولذا فهو خفي ومضمر وقادر على الاختفاء دائما، ويستخدم أقنعة كثيرة أهمها قناع الجمالية اللغوية، وعبر البلاغة وجمالياتها تمرّ الأنساق آمنة مطمئنة »[42]،ولم يفصح الهمذاني عن هذه الأنساق، لأنه لم يكن في نيته و وعيه ذلك، وإنما نشأت نتيجة تواتر ورودها ضمن نصوص المقامات، حتى تكونت وصارت نسقا مضمرا ينتظم داخل نصوصها؛ لذا فالنسق « من حيث هو دلالة مضمرة فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف، ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء »[43]

و نحاول في هذا العنصر الأخير من هذا البحث الكشف عن مختلف الأنساق المضمرة للسخرية ودلالاتها في مقامات بديع الزمان الهمذاني، من خلال الخطاب الساخر المتضمن فيها؛ حيث يسخر الهمذاني من أوضاع المجتمع التي عاشها، فامتلأت نفسه سخطا، و رفضا لها؛ فكنَّى عن ذلك، من خلال نسجه لقصص مغامرات بطل مقاماته الإسكندري.

1- **النسق الاجتماعي:**

يتعرّف قارئ مقامات الهمذاني في كل مقامة على صورة من صور شخصية الإسكندري؛ والتي تكوّن من خلال متابعة القراءة لجل المقامات أشكالا للكُدْية التي تفشت في المجتمع العباسي، فسادت سلطة المال، وظهرت فئة المحتالين، وتجلى ذلك في مقامات عديدة؛ كالمقامة الساسانية[44]، والمقامة القزوينية[45]، والمقامة البخارية[46]، والمقامة الأزادية[47]، وغيرها.

كما نجد الإسكندري يحتال على الناس في المقامة المكفوفية، ليكسب عطفهم وشفقتهم؛ فيدّعي أنه مكفوف، وصاحب دَيْن، وأنه قد تغير حاله إلى فقر بعد غنى، ، فرّقت له قلوب السامعين، ومن بينهم "عيسى بن هشام" الذي تعرّف عليه في النهاية ، وتفطّن إلى حيلته[48].

وكثيرا ما عبّر عيسى بن هشام عن عدم إعجابه بخدع أبي الفتح الاسكندري، وينكر ذلك؛ و« يتكرر الإنكار كثيرا في المقامات سواء كان مبعثه الغضب أو المداعبة ويشير إلى تصادم رؤيتين متناقضتين. سلوك أبي الفتح هو على النقيض من السلوك الذي يتبناه أو يتمناه عيسى بن هشام، غير أنه لابد من إضافة أن هذا الأخير، رغم كونه القائم بالسرد، لايملك وضعا متميزا، فمخاطبه يحاوره، ويعرض موقفه بنفسه، ويؤكد بذلك أنه ذات تمتلك نفس الحقوق » [49]، وبالتالي فإن ذلك الصراع القائم بين شخصيتي عيسى بن هشام والإسكندري يحاكي النزاع الموجود في المجتمع بين نوعين من الأفراد؛ كل منهما يحاول إثبات وجوده، غير أن الانتصار كان في الغالب للمكدي (الاسكندري) الذي يحقق هدفه من خلال الاحتيال، في حين تتمظهر شخصية عيسى بن هشام كوسيلة لإبراز صورة المجتمع العباسي القائم على الصراع بين المتناقضين، والطبقية؛ باعتبار أنه « لا تقف الـ "أنا" بمعزل عن قالب مهيمن من المعايير الأخلاقية والأطر الخُلُقية المتصارعة.ويعدّ هذا القالب بمعنى هام الشرط لنشوء الـ"أنا" أيضا » [50] ، وكذلك ظاهرة التسول التي صوّرها الهمذاني في بعض مقاماته، وخصوصا المقامة الدينارية[51]، التي تحاكي تكسب الفقراء من خلال إلحاحهم على طلب المال من الناس.

لقد عبّر سلوك المكدي عن رغبته في الخروج عن سلطة المجتمع و أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية، والتي تمثل المركز المتحكم في شؤونه ونمط حياته، ومحاولته التخلص من الشعور بالتهميش والانهزام؛ لذا فهو يحتال على الناس ليحقق لنفسه انتصارا على المركز الذي سلبه أبسط حقوقه، معبرا عن « الحقد على الدهر وصروفه، ومحاولته الهرب من بؤسه وشقائه بالتسول والاستجداء، وما في ذلك من نقد مرير لمجتمعه، وتمرد عنيف على أوضاعه الظالمة القاسية»[52] ؛ وبالتالي تكشف سخرية الهمذاني من احتيال المكدي عن نسق ثقافي مضمر يمثل وضعا اجتماعيا شهده الهمذاني، والذي يمثل هوية المجتمع العباسي آنذاك، باعتباره « مواضعة (اجتماعية، دينية، أخلاقية،استيتيقية...) تفرضها، في لحظة معيّنة من تطورها، الوضعية الإجتماعية، والتي يقبلها ضمنيا المؤلف وجمهوره» [53]

وبالرغم من أن الاسكندري كان دائما متنكرا ومتخفيا، إلا أنه يتم التعرف عليه من قبل "عيسى بن هشام" وكشف حقيقته، وهذا يوحي بأن ظاهرة الكُدية كانت متفشية وبارزة في المجتمع العباسي آنذاك؛ بحيث أن المستجدي (الاسكندري) كان يستخدم قناع الفقر كي يحتال على ضحاياه؛ باعتبار أن ذلك القناع هو عبارة عن «مجموعة معقدة من العلاقات بين الوعي الفردي والمجتمع، وهو مكيف للغايات المخصصة له، يرتديه الفرد أو ينزلق فيه، أو يتملك هو الفرد ويستحوذ عليه من حيث لا يدري. إنه محسوب ومنظم ومصنع بهذا الشكل لأنه يرمي إلى خلق انطباع ما عند الآخرين من جهة، وإلى إخفاء وتورية وتمويه طبيعة الفرد الحقة من جهة أخرى» [54]

يعد الهمذاني من خلال كشفه لما كان سائدا في المجتمع « ناقدا حقيقيا، لديه حساسية لنقائص المجتمع فيسخر بهدف الإصلاح، لتكون العملية هنا في قمة العمل الإيجابي البنّاء، ومحاولة لطيفة مهذبة، الغرض منها تطهير المجتمع من الظواهر السلبية التي تجانب التطور، وتناهض الحركة نحو المستقبل، والتخلص من العوامل التي تهدد الحياة بالتوقف أو البطء ... ذلك أن حرص المجتمع على كيانه يثير فيه روح المقاومة والدفاع عن النفس، ليرد على المهاجمين المنتقصين للأمة كلّها من أعدائها، أو الخارجين على قواعدها ونظامها من أبنائها، لإعادتهم إلى الطريق الصحيح، والتخلي عن عاداتهم المرفوضة في مجتمعهم »[55]، فحين سرد بديع الزمان الهمذاني مغامرات بطل مقاماته، لم يكن هدفه منها، الفكاهة أو التهكم مما كان يراه في مجتمعه، من أفعال أو سلوكيات تناقض القيم النبيلة؛ والذي يعد النسق الظاهر للسخرية، بل اتخذها وسيلة للتعبير عن قضايا اجتماعية، قصد نقد مجتمعه وإصلاحه، وتحقيق التوازن لأفراده؛ وهنا يتجلى النسق المضمر للسخرية .

2- النسق الأدبي:

يتمظهر الإسكندري في بعض المقامات أنه رجل له علم بالأدب والشعر، وذو ثقافة واسعة، ويملك من الفصاحة والبيان ما كان من المفروض أن يحقق له مكانة مرموقة في المجتمع، لكنه في الواقع يعيش حياة ذليلة، ويكسب قوت يومه من خلال الاحتيال على الناس بذكائه وبلاغته وفصاحته، وفي ذلك إنقاص من قيمة الأدباء الذين عانوا من ظروف الحياة القاسية، فجعلوا من أدبهم وسيلة للتكسب؛ ويتجلى ذلك بوضوح في المقامة العراقية؛ إذ يتمظهر

الإسكندري مرتديا ثيابا رثة، فصيح اللسان، وقد كان يطلب من المارين مساعدة مالية، لكن دون جدوى، فلا أحد يلتفت إليه، فانتبه إلى أمره عيسى بن هشام؛ إذ أعجبته فصاحة لسانه، فسأله عن سرها، فقال: « من العلم. رضت صعابه وخضت بحاره. فقلت: بأي العلوم تتحلّى؟ فقال: لي في كل كنانة سهم فأيها تحسن؟ فقلت الشعر... » [56]، ثم جعل الاسكندري يسأل عيسى بن هشام عمّا نظمه الشعراء العرب من الشعر، من قبيل « هل قالت العرب بيتا لا يمكن حلّه وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله. وهل لها بيت سُمِجَ وضعه ...» [57]، فعجز عيسى بن هشام عن الإجابة عنها كلها، ففسرها له الإسكندري، فاستغرب عيسى بن هشام حال الإسكندري من عوز وفقر وحاجة، ورضا بالذل والهوان، فكان رد الاسكندري حكيما، يحاكي حال الأديب في المجتمع العباسي آنذاك؛ إذ قال:

بُؤْسًا لِهَذَا الزَّمَانِ مِنْ زَمَنٍ كُلُّ تَصَارِيفِ أَمْرِهِ عَجَبُ
أَصْبَحَ حَرْبًا لِكُلِّ ذِي أَدَبٍ كَأَنَّمَا سَاءَ أُمَّهُ الأَدَبُ [58]

يقر الإسكندري بحقيقة الواقع الذي يعيشه المثقف والأديب في العصر العباسي، وما يعانيه من تهميش وبؤس، ومكانة ذليلة في المجتمع، وبذلك يكون الهمذاني قد أبرز علاقة المثقف بالمجتمع من خلال سخريته من حال الإسكندري، وهو نسق آخر مضمر خلف وضع الإسكندري.

و في سياق آخر يقدم الهمذاني من خلال بعض مقاماته أحكاما حول بعض الشعراء من العصر الجاهلي والإسلامي، مثل :امرئ القيس، النابغة الذبياني، زهير بن أبي سلمى، طرفة بن العبد، جرير، والفرزدق، على لسان بطل مقاماته "الإسكندري" حين سُئِل عن رأيه في شعر أولئك الشعراء[59]، وفي مقابل علم الإسكندري الغزير بالشعر والشعراء القدماء، كان يعيش حياة قاسية؛ فهو فقير معدم، يرتدي الملابس البالية، بعد تغير حاله من اليسر إلى العسر؛ وهكذا أخبر عن نفسه، حين سُئل عن أخباره وشعره [60].

وبذلك يؤكد الهمذاني الواقع الذي يعيشه الأدباء والمثقفون في المجتمع العباسي، من خلال وصفه المتكرر لحال الإسكندري المعدم ،هذا من جهة، كما أنه قد أعرب ، من جهة أخرى ،عن آرائه حول الشعر العربي، وأعطى أحكاما حول بعض الأبيات الشعرية لمختلف الشعراء[61]

ونجد الهمذاني في المقامة الجاحظية يقيّم الجاحظ ؛ حيث عاب عليه عدم نظمه شعرا جيدا، مقارنة بما ألّفه في النثر؛ إذ يقول الهمذاني على لسان أبي الفتح الاسكندري: « إن الجاحظ في أحد شِقَّي البلاغة يقطف. وفي الآخر يقف. والبليغ من لم يقصِّر نظمُهُ عن نثره. ولم يُزْر كلامه بشعرِهِ. فهل ترْوُون للجاحظِ شعرا رائعا؟ قلنا : لا »[62]، فقد حكم بديع الزمان الهمذاني على شعر الجاحظ بأنه أقل جودة من نثره، ونلمس من حكمه ذاك سخرية من مكانة الجاحظ الأدبية ، رغم ما ألّفه في مجال النثر، مما يؤكد هيمنة نسق قيمة الشعر لدى الأدباء والنقاد القدماء مقارنة بمنزلة النثر، ولعل ذلك كان سببا في إبراز الهمذاني من خلال بعض مقاماته ثقافته الشعرية والنقدية، من خلال اطلاعه على شعر الشعراء القدامى، على اختلاف عصورهم، ومعرفته بخصائص شعرهم، فقد أصدر أحكاما حول شعر بعضهم، وأدرج أشعارا كثيرة لشعراء من مختلف العصور في مختلف مقاماته، على سبيل الاستشهاد بها، حسب سياق مواضيع مقاماته [63].

3- **النسق الديني:**

يتمظهر هذا النسق من خلال أشكال الخرافة والدجل باسم الدين، والتي يسرد تفاصيلها الراوي عيسى بن هشام، ويوظفها الاسكندري بطل مقامات الهمذاني، لإيقاع ضحاياه من السذج في شباكه لأخذ أموالهم، والتي تصوّر ما كان سائدا في المجتمع العباسي آنذاك من خرافات ومعتقدات، ساخرا من تصديق الناس لها، رغم عدم تقبلها لا من قبل العقل ولا الدين، ويظهر ذلك جليا في المقامة الموصلية[64]؛ إذ نجد الاسكندري يحتال على قوم، بادعائه امتلاك القدرة على إحياء الميت مقابل الظفر بالذهب والفضة، لكن أهل الميت اكتشفوا أمره في النهاية، وانهالوا عليه بالضرب، لكنه استطاع الفرار، فالهمذاني في هذه المقامة، ينتقد ضعف إيمان الناس في العصر العباسي، وتصديقهم لكذبة الاسكندري ، ساخرا منهم ومن سذاجتهم.

وتكشف المقامة الحرزية[65] عن اعتقادات الناس في المجتمع العباسي، والبعيدة كل البعد عن تعاليم الدين الإسلامي؛ حيث إن الهمذاني ينتقد من خلالها أفراد مجتمعه الذين يؤمنون بفعالية التمائم، ويُصَدِّقون أنها تَقِيهِم من الموت، وقد استغل الاسكندري ذلك، فاحتال على مجموعة من الأفراد، كانوا مسافرين على متن سفينة فيها ثقب، فطلب منهم إعطاءه دينارا مقابل حَرْزٍ يمْنع عنهم الموت، ودينارا آخر بعد نجاتهم.

كما تعبّر المقامة الأصفهانية[66] عن سذاجة الناس؛ نتيجة تصديقهم للإسكندري، حين أخبرهم أنه رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المنام وأعطاه دعاء، فباعهم إياه.

ومما سبق يتضح أن سخرية الهمذاني كانت من أفراد المجتمع العباسي، الذين اتخذوا الدين وسيلة للتكسب، عن طريق الكُدية والاحتيال؛ حيث تمظهر ذلك من خلال احتيال الاسكندري على القوم، وساعده في ذلك سذاجة بعضهم، واعتقاداتهم الخاطئة، والمخالفة لتعاليم الدين؛وقد كشف ذلك النسق المضمر خلف تلك السخرية، والمتمثل في إبراز علاقة أفراد المجتمع بذلك « الكل المركب الذي يشمل : المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعرف، وجميع المقدمات، والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع » [67]؛ حيث قدّم الهمذاني صورة واضحة عن علاقة الفرد بالدين والأخلاق والعرف والمعتقدات السائدة في المجتمع العباسي.

4- النسق السياسي:

يكشف الهمذاني عن علاقة السلطة الحاكمة بالرعية، ومظاهر الفساد في حكم القضاة، من خلال سخريته من الواقع السياسي في المجتمع العباسي آنذاك، وهو نقد للوضع السائد،رغبة في تغييره، وهو النسق المضمر؛ حيث يصف الهمذاني القضاة بسخرية لاذعة، في المقامة النيسابورية؛ إذ ينعتهم بصفات بذيئة لا أخلاقية، فأثناء حديثه عن أحد القضاة، وصفه بآكل أموال اليتامى، وأموال الناس من دون حق، وشبّهه باللص الذي يسرق أموال الناس، ولا يمنح الضعفاء والفقراء حقوقهم، في حين يعطي الأقوياء ما يفوق ويتعدى حقوقهم، كي لا يفضحون أمره، رغم أن مظهره يوحي بأنه إنسان تقي ومتدين وصالح؛ لذا فهو يبطن غير ما يظهر[68]؛ إذ يقول الهمذاني على لسان الإسكندري، حين سأله عيسى بن هشام عن هوية رجل، فأجابه: « هذا سوسٌ لا يقع إلّا في صوفِ الأيتام،وجرادٌ لا يسقطُ إلّا على الزّرعِ الحرامِ، ولصٌ لا ينْقُبُ إلّا خِزانة الأوقاف، وكرديٌّ لا يُغير إلّا على الضِّعاف، وذِئْبٌ لا يفترس عباد اللهِ إلّا بين الرُّكوع والسُّجُود،ومحارِبٌ لا ينهبُ مال اللهِ إلّا بين العُهُود والشُّهود » [69]

فقد لجأ بديع الزمان الهمذاني إلى السخرية والتهكم من وضع هذا القاضي؛ ليرمز إلى وضع السلطة الحاكمة وعلاقتها بأفراد المجتمع، وخصوصا الضعفاء منهم؛ لأنه لا يستطيع التعبير عن ذلك بشكل صريح، فاضطر إلى أسلوب الإيماء الساخر، ليجعله سلاحا لنقد حال القضاة

والسلطة في عصره، قصد نقد تلك السياسة، ورغبة منه في إعلاء صوت الثقافة على السلطة والسياسة، وهذا ما أكده "تيري إيجلتون " Terry Eagleton حين قال : « أن نعلي الثقافة على السياسة – أن نكون بشرا أولا، ومواطنين ثانيا- يعني أن على السياسة أن تتحرك ضمن بعد أخلاقي عميق، معتمدة على ما توفره من موارد، في جعلها الأفراد مواطنين صالحين، يشعرون بالمسؤولية ويتسمون بالاعتدال والطباع الحسنة» [70]

وفق ما سبق يمكن القول إن « مقاربة النصوص السردية في التراث العربي لا يمكن أن تتم عبر فصلها عن تموضعها الثقافي، في زمن كتابتها وفي زمن قراءتها، ومقاربتها بوصفها نصوصا أدبية يجب البحث في أدبيتها فقط، وإنّما لابد من الكشف عن الترابط بين الأدبي فيها والثقافي العام المرتبط بالوعي العربي عموما، في زمنيها (الكتابي والقرائي) لكي تنكشف صورتها الفاعلة والمتفاعلة مع الحفريات السابقة عليها والمعاصرة لها و وعي القارئ النموذجي الذي يلامس إشارتها ويطورها باعتبار المحكيات السردية نصوصا مفتوحة وليست مغلقة »[71]، فقد انفتحت نصوص مقامات الهمذاني على واقع عاشه، وسبر أغواره، فأخرجه في نسيج أدبي ساخر يعبّر عن رؤيته لمجتمعه، وانتقاده له، من مختلف الزوايا، بشكل غير مباشر، مما جعل أنساق هذه النصوص مضمرة، لا تظهر إلا من خلال العلاقة التي تجمع بينها وبين سياقاتها الخارجية المتعلقة بزمن تأليفها.

خاتمة:

تمكنت في نهاية هذه الورقة البحثية من رصد النتائج الآتية:

– أتاحت السخرية المتضمنة في نصوص مقامات الهمذاني تعرية الواقع الذي كان سائدا في المجتمع العباسي؛ إذ تمكن الهمذاني من خلق سياق لنقد كل سلوك منبوذ، وفق حادثة أو قصة طريفة، ليست هي الهدف بالدرجة الأولى، لكنها الوعاء الحامل لذلك النقد غير المباشر للمجتمع وأفراده، لتبدو أكثر تأثيرا وإقناعا، وبذلك تصبح السخرية وسيلة تخفى الهمذاني خلف ستارها، للإيماء بما في جعبته من نقد اجتماعي، ديني، أدبي وسياسي للمجتمع.

– لقد استطاع الهمذاني تتبع أحوال المجتمع، وتصويرها ضمن إطار متجانس من الفكاهة والسخرية والتهكم، ناهيك عن أسلوبها الأدبي والفني، قصد نقد تلك الأحوال، معبرا عن آرائه اتجاهها،و إصلاح المجتمع وتقويمه

– ذكر الهمذاني استخدام الاسكندري عدة طرق و وسائل للكُدية، من بينها براعة حواره وفصاحة لسانه، والمراوغة والاحتيال من خلال ادّعاء العمى أو الفقر الشديد والدين،والتي كانت بمثابة منفذ لكشف ما كان سائدا في المجتمع من طبقية واحتيال وفساد، ولجوء الفقراء إلى الاستجداء لكسب قوت يومهم.

– تمثل شخصية الإسكندري الساخرة أشكالا متعددة للأنساق المضمرة في المجتمع العباسي، من خلال معالم تلك الشخصية ومغامراتها المختلفة التي هدفها تحصيل المال عن طريق الاحتيال.

– لقد كان للسخرية في مقامات الهمذاني نسقين؛ أحدهما ظاهر للمتلقي، والمتمثل في بعث روح الفكاهة والتهكم في نصوص المقامات، في حين تجلى النسق المضمر في كشف واقع الحياة في العصر العباسي من عدة نواحي؛ كالاجتماعية، الدينية ، الأدبية والسياسية.

– كشفت الأنساق المضمرة المتضمنة في ثنايا نصوص مقامات الهمذاني عن تلك البنى النسقية العميقة، والتي تهيمن على أفراد المجتمع، وتوّجه خطاب العديد من المقامات، من خلال النسق الظاهر المتمثل في خطابها الساخر.

هوامش:

[1] علي عبد المنعم عبد الحميد، النموذج الإنساني في أدب المقامة، مكتبة لبنان ناشرون(لبنان)، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان(الجيزة)، ط(1)، 1994، ص 16.

[2] خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ،الجزء (1) ، دار العلم للملايين(بيروت)، ط(15)، 2002، ص ص 115، 116.

[3] المرجع نفسه، ص 115.

[4] ينظر:سيف محمد سعيد المحروقي، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، دار الكتب الوطنية– هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، "المجمع الثقافي" (أبو ظبي)، ط(1)،2010،ص100

[5] مصطفى الشكعة، بديع الزمان الهمذاني ،رائد القصة القصيرة والمقالة الصحفية،الدار المصرية اللبنانية (القاهرة)، ط(1) ،2003، ص323.

[6] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب ، المجلد(12)، دار صادر (بيروت)، 1990، ص ص 352،353.

[7] ينظر: مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط(8). 2005، ص 1171.

[8] ينظر: أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي(بيروت)، ط(1).2001 ، ص487.

[9] نزار عبد الله خليل الضمور،السخرية والفكاهة في النثر العباسي،دار حامد (عمان)،ط(1)، 2012، ص 16.

[10]نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار التوفيقية للطباعة(القاهرة)، ط(1)،1978، ص 13.

[11] شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك – رؤية جديدة، عالم المعرفة،2003، ص 52.

[12] ابن منظور، لسان العرب، المجلد (12)،ص 617.

[13] ينظر: مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1171.

[14] شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك ، ص 44.

[15]ابن منظور، لسان العرب، المجلد (13)، ص 523.

[16] ينظر: مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ،ص1250 .

[17] شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، ص16.

[18] أحمد محمد الحوفي، الفكاهة في الأدب العربي، أصولها وأنواعها، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع(القاهرة)، 2001، ص9.

[19] شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك، ص51.

[20] مقامات بديع الزمان الهمذاني، قدم لها وشرح غوامضها : الإمام العلامة الشيخ محمد عبده، منشورات محمد علي بيضون، در الكتب العلمية (بيروت) ، ط (3)، 2005، ص ص 71-74.

[21] علي عبد المنعم عبد الحميد، النموذج الإنساني في أدب المقامة، ص51.

[22]المرجع نفسه، ص 63.

[23] ينظر: مقامات بديع الزمان الهمذاني،تقديم : محمد عبده، المقامة الموصلية، ص118.

[24] المصدر نفسه، ص ص118- 120.

[25] نزار عبد الله خليل الضمور،السخرية والفكاهة في النثر العباسي،دار الجامد للنشر والتوزيع(عمان)، ط(1)،2012، ص 91.

[26] ينظر: مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم : محمد عبده، ص13.

[27] المصدر نفسه، ص ص 12-16.

[28]المصدر نفسه، ص ص 56 -61.

[29]علي عبد المنعم عبد الحميد، النموذج الإنساني في أدب المقامة، ص 63.

[30] ينظر: مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم : محمد عبده ، ص 65.

[31] المصدر نفسه، ص66.

[32] سعيد أحمد عبد العاطي غراب، السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين، دراسة وتحليل ونقد، دار العلم والإيمان(مصر)، ط(1)، 2009، ص 86.

[33] ينظر: مقامات بديع الزمان الهمذاني ، تقديم: محمد عبده، المقامة الحرزية،ص ص137-139.

[34] مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، ص925.

[35] ابن منظور، لسان العرب، المجلد (6)، ص 179.

[36] ايديث كويزيل،عصرالبنيوية،ترجمة:جابرعصفور،دارسعاد الصباح(الكويت)،ط(1) 1993،ص 411

[37] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[38] عبد الله الغذامي،النقد الثقافي- قراءة في الأنساق الثقافية العربية،المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء)، ط (1)، 2000، ص 76.

[39] المرجع نفسه، ص 35.

[40] المرجع نفسه، ص 80.

[41] يوسف محمود عليمات،النقد النسقي، تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي،الأهلية للنشر والتوزيع(عمان)،ط(1)، 2015، ص21.

[42] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص79.

[43] المرجع نفسه، ص 82.

[44] ينظر: مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم : محمد عبده،ص ص108-112.

[45] المصدر نفسه، ص ص102-107 .

[46] المصدر نفسه، ص ص97-101 .

[47] المصدر نفسه، ص ص 12- 15.

[48] المصدر نفسه، ص ص 93- 96.

[49] ينظر: عبد الفتاح كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي،دار توبقال للنشر(الدار البيضاء)،ط(2)، 2001، ص52.

[50] جوديث بتلر،الذات تصف نفسها،ترجمة:فلاح رحيم،التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت)، ط(1)،2014، ص45.

[51] ينظر: مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم : محمد عبده ، ص ص246-251.

[52] علي عبد المنعم عبد الحميد، النموذج الإنساني في أدب المقامة، ص 71.

[53] عبد الفتاح كيليطو، المقامات – السرد والأنساق الثقافية، ص 8.

[54] كارل غوستاف يونغ،جدلية الأنا واللاوعي، ترجمة: نبيل محسن،دار الحوار للنشر والتوزيع(سورية)، ط(1)، 1997،ص117.

[55]نزار عبد الله خليل الضمور، السخرية والفكاهة في النثر العباسي، ص ص 23،24.

[56]مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم : محمد عبده ، المقامة العراقية، ص ص166،165.

[57]المصدر نفسه، ص165

[58] المصدر نفسه، ص167.

[59]المصدر نفسه، المقامة القريضية، ص ص8 -10.

[60] المصدر نفسه، المقامة القريضية، ص 10.

[61]المصدر نفسه، المقامة الشعرية، ص ص 252- 256، والمقامة العراقية، ص ص 164- 173.

[62]المصدر نفسه، المقامة الجاحظية، ص ص89 ، 90.

[63]المصدر نفسه، المقامة الجرجانية؛حيث وظف الهمذاني خلالها بيتين للشاعر زهير بن أبي سلمى، ص57، والمقامة الإبليسية التي وظف خلالها الهمذاني بيتا للشاعر جرير،ص ص 208،209.

[64]المصدر نفسه، ص ص115-121.

[65]المصدر نفسه، ص ص 137- 140.

[66] المصدر نفسه، ص ص62- 66.

[67] ينظر: مفهوم الثقافة عند " تايلور" ضمن كتاب: زيودين ساردار ، بوردين فان لون ، الدراسات الثقافية، ترجمة: وفاء عبد القادر، مراجعة وإشراف وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة)، عدد 558، 2003، ص5.

[68]مقامات بديع الزمان الهمذاني، المقامة النيسابورية، هامش ص ص 227، 228.

[69]المصدر نفسه، ص ص 227، 228.

[70] تيري ايجلتون، فكرة الثقافة،ترجمة:ثائر ديب، دار حوار(اللاذقية)، ط 2000، ص ص 25،26.

[71]يوسف إسماعيل، محكيات السرد العربي القديم، مقاربة لأدبيات العلاقة بين السلطة والمثقف، دراسة في البنية الحكائية لحكاية الأسد والغواص، منشورات اتحاد الكتاب العرب(دمشق)، 2008، ص ص 11، 12.